

الاستراتيجية الحجاجية في مقامات جلال الدين السيوطي مقاربة تداولية

أ. فتيحة بوسنه

جامعة مولود معمري

تهدف هذه الدراسة إلى استغلال القراءة التأويلية في ضوء النظرية التداولية، قصد التوصل إلى معرفة إمكاناتها بالنسبة لدراسة بعض النصوص التراثية في تأويل الأقوال. ولقد وقع اختيارنا على المقامات لأنها نصوص فريدة في الأدب العربي، فمنذ ظهورها على يد الهمذاني عرفت رواجا كبيرا، وغزت كل البلدان العربية شأنها شأن القصيدة، إذ ذاع صيتها إلى أن تجاوزت حدودها العربية، واستمرت في الوجود إلى غاية القرن العشرين. ولقد اخترنا منها مقامات السيوطي، وهي مقامة الحمى، المقامة النيلية في الرخاء والغلاء، المقامة الدرية في الطاعون، المقامة الآزوردية في التعزية عن فقد الذرية، مقامة الروضة في روضة مصر، مقامة الروضة في والدي خير البرية، طرح فيها مشاكل اجتماعية متنوعة، منحها بعدا دينيا خاصا، جعلت منها مصدر نفع لمن أصيب بها بدل أن تكون أن تكون مصدر ضرر، فدافع عن هذه النظرة بأساليب حجاجية متنوعة قصد إقناع القارئ بصحة هذا التصور.

اختار السارد استراتيجية قدّم فيها نفسه للقارئ بصفته صاحب الحكي وشاهدا على أحداثه، دون أن يشاركه في ذلك أي راو. فالمقامات مبنية على المستوى التخاطبي الأول، وهو المستوى الذي يكون فيه قطبا التخاطب هما السارد والقارئ ويغطي بناء المقامات، وحتى إن كان في لحظات معيّنة يستعمل تقنيات نقل كلام الشخصيات، وذلك بانتقاله إلى المستوى التخاطبي الثاني الذي يكون فيه قطبا التخاطب شخصيات من خلق المستوى التخاطبي الأول، فهذا لا يتعارض مع بنائها العام، إذ إنّها . أي تقنيات نقل كلام الشخصيات . من جزئيات السرد، أمّا المقامات بوصفها كلا متكاملا، فتصدر عن سلطة سردية أحادية، يقوم فيه المستوى التخاطبي الأول بإبداع النص، ذلك أنّ هناك فارقا جوهريا « بين المستوى التخاطبي الأول وكل المستويات التي تتولد، فالمستوى الأول هو فاعل على

الإطلاق، أما ما دونه فمفعول. الأول هو الذي يبدع النص وكل ما فيه، أما ما يتفرع عنه فهو من خلق الأول وتصوره»⁽¹⁾.

ومن المعمول به في الأدبيات السردية، الأخذ مبدئيًا بالإطار العام والأول من حيث آلية تلقي النص وإدراك بنائه، قبل الوقوف على التقنيات التي يلجأ إليها السارد في تقديم المستويات الأخرى داخل هذا الإطار العام. لكن السارد في هذه المقامات خرج عن المألوف وتجاوز ما هو مفترض، فقد لجأ إلى المستوى التخاطبي الثاني لافتتاح كل المقامات، وكان ينقل عبر تقنية النقل المباشر كلاما مقتبسا من القرآن. فالمقامة الأولى مثلا تبدأ بـ: «يقول الله تعالى . وكفى به حكما عدلا مرضيا . : [وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا]» (مريم: 71)⁽²⁾.

لا شك أن خروج السارد عن تقنيات تقديم المستويات التخاطبية في النص له دلالات عميقة، ولا شك أنه اختار هذه الطريقة وهو واع بأهميتها وفاعليتها في اجتذاب القارئ والتأثير فيه، إذ يبدو أنه يضعه ويضع أحواله النفسية موضع الاعتبار الكامل فبدء المقامة بآية تحدث من الأثر في نفس المتلقي، ما يجعلها تستحق أن تنتصب على عتبة المقدمة المعلنة ببدء التواصل بينه وبين القارئ، ولا شك أنه يكتبها وهو يبني صورة له في ذهنه، وهي صورة قارئ يسري عليه مفعول القرآن مهما تكن جنسيته أو عقيدته، ومن نافلة القول أن نذكر مدى تأثير القرآن في النفس البشرية منذ اللحظة الأولى لنزوله، سواء من شرح الله صدره للإسلام، أو من عارض وجعل الله على قلبه غشاوة، يقول سيد قطب: «وإذا تجاوزنا النفر القليل الذين كانت شخصية محمد صلى الله عليه وسلم وحدها هي داعيتهم إلى الإيمان أول الأمر... فإننا نجد القرآن كان العامل الحاسم أو أحد العوامل الحاسمة في إيمان من آمنوا أوائل الدعوة... تكشف في هذا السحر القرآني الذي أخذ العرب منذ اللحظة الأولى ... يستوي في الإقرار به المؤمنون والكافرون»⁽³⁾.

كما أن الإبدال الذي لحق المستويات التخاطبية، أثر في وظيفتها، بحيث يصبح للمستوى الثاني المفتوح للمقامات مفهوم مركزي، ويتحول إلى بؤرة الإبداع التي تولد النص ويتضمن كل ما يأتي فيه من دلالات، ويصبح السارد شارحا لهذا المستوى ومعلقا عليه، وكأن المقامات أُلِّفت لهذا الغرض، وإن الخطاب الذي تحمله خطاب تفسيري حاجي، يأخذ مسارا

منتظما، يبدأ من الخطاب الفاعل والمصدر الرئيس للحجة كما صرّح بذلك السارد في الجملة الاعتراضية التي تصدرت المقامة الأولى: «- وكفى به حكما عدلا مرضيا-» إلى الخطاب المفعول الذي يشغل حين يستشعر السارد حاجة المتلقي، ويتوقف بقرار تحكّمي منه، عندما يستوفي الخطاب غرضه المنشود وهو إقناع المتلقي.

يبدو السارد موفقا في اختيار مقدمته التي تتسجم مع المواضيع المنتقاة، فهو يندمج في مشاكل الحياة الاجتماعية التي تمس أحاسيس النفس البشرية، ولهذا الافتتاح دور في طمأنة النفس والإحساس بالقرب من الخالق، ويرفع معنوياتها بما يكفي لتحمل صعوبة الموضوع المطروح. وإنّ استناد حجاجه إلى قول لا يحتمل إلاّ الصدق، يمكنه من طرح انتصاره منذ البداية.

بعد هذا الخطاب الفاعل، يأخذ السارد بقطبي التخاطب الأصليين ويحتل مكانه الطبيعي، والمستويات التخاطبية التي نشهدها فيه تتدرج تحته، بمعنى أنها تدعم البنية الحجاجية للسرد، فتكون بذلك ضمن الخطاب المفعول لا الفاعل. وبهذا يقوم المستوى التخاطبي الثاني المفتوح للمقامات، والذي يكون بمثابة العنوان لها ويختزل موضوعها بوظيفة إنشائية ونقصد بالإنشائية هنا «كلّ مرة تؤدي عملية من عمليات النظم والتركيب إلى إنجاز تصرف أو يجسد الموضوع الذي يتكلم عليه النص، حتى ولو كان الكلام في عملية النظم المعنية بالأمر خبريا بالمعنى النحوي الحصري» (4).

لا مناص من ولوج المقامات للكشف عن بنيته الحجاجية التي يغذيها النسق الديني، والذي ينتشر كبساط على أرضيتها، مما لا يدع شكّا في أنّها تستقي من القرآن مصادره الذاتية التي بنى استدلاله عليها، وإن كان مقامه أعلى وأعظم لأنّه ليس مثل كلام البشر، ومنه كانت الاختيارات الضرورية الملائمة للمواضيع المنتقاة، ثم تنفتح المقامات على نصوص ومعرفيات أخرى، تدمجها في بنيته الحجاجية وتمنحها مظهرا مختلطا، وتظهر في المقامات كأنساق مكّملة ومدعمة للنسق المحوري. أي النسق الديني - في بُعد الحجاجي.

1 نمط الاستدلال القرآني : قد نزل القرآن الكريم بشريعة أبدية للناس كافة، لم يختص

فيها بجيل أو عرق لذلك وجب أن يكون فيه من الأدلة والمناهج العقلية ما ينفع الناس، على اختلاف أصنافهم وتفاوت مداركهم، فيصل إلى الجميع، ويجد فيه المثقف والعامي،

والفيلسوف الذي غلبت عليه الدراسات العقلية والأقيسة المنطقية بغيته. يقول الإمام أبو حامد الغزالي « أدلة القرآن مثل الغذاء ينفع به كل إنسان، وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينفع به آحاد الناس، ويستضر به الأكثرون، بل أدلة القرآن كالماء الذي ينفع به الصبي، والرضيع والرجل القوي، وسائر الأدلة كالأطعمة التي ينتفع بها الأقوياء مرة ويمرضون بها أخرى، ولا ينتفع بها الصبيان أصلاً»⁽⁵⁾.

لقد أثارت مسألة دراسة الاستدلال القرآني وانبثاقه على أحوال المتلقين، اختلافًا بين الفلاسفة المتأثرين بالفلسفة اليونانية والسلفيين (الأصوليين)، فقد ذهب ابن رشد الفيلسوف الفقيه في كتابه "فصل المقام"، إلى أن الناس في الشريعة ثلاثة أصناف: « صنف ليس هو من أهل التأويل أصلاً، وهم الخطابيون الذين هم الجمهور الغالب، وذلك أنه لا يوجد أحد سليم العقل يعرَى من هذا النوع من التصديق، وصنف هو من أهل التأويل الجدلي وهؤلاء هم الجدليون بالطبع فقط أو بالطبع والعادة، وصنف هو من أهل التأويل اليقيني وهؤلاء هم البرهانيون بالطبع والصناعة أعني صناعة الحكمة»⁽⁶⁾.

وقد ذهب إلى أن مقصود الشرع الأول هو العناية بالجمهور الأعظم. ولما كان هذا الجمهور الأعظم من العامة، فهو لا يخاطبهم بتعقيد المنطق، ولا تفكير الفلاسفة لذا فإن أكثر حجاج القرآن من الاستدلال الخطابي.

ليس غرضنا من إثارة هذه النقطة الدخول في تفاصيل القضية، وإنما نذكر إجمالاً ما ذكره العلماء المسلمون في العصر الحديث في هذه المسألة مما يحسم الإشكال وهو أن: «الاستدلال القرآني له طريق قائم بذاته وإذا نظرت فيه وجدت فيه ما امتازت به الأدلة البرهانية من يقين لا مرية فيه وما امتازت به الأدلة الخطابية من إثارة الإقناع، وما امتازت به خواص البيان العالي، مع أنه لا يسامى، وهو معجز لكل الناس عربهم وعجمهم»⁽⁷⁾.

فالقرآن الكريم كان يسلك بعض مناهج الخطابة في الاستدلال مع علوه عليها وذلك:

- أولاً: في أسلوبه، لأنه معجز ولا يشبه كلام البشر؛

- ثانياً: لأن كل مقدماته ونتائجه يقينية، والأدلة الخطابية كما يقول ابن رشد تقوم على

إثبات الحق بأدلة ظنية أو يقينية.

ولقد تبين لنا انبناء هذه المقامات في حاجها على بعض مناهج الاستدلال الخطابي وفق ما سلك فيه القرآن، من صدق كلّ ما اشتملت عليه من مقدمات ونتائج، لكون البنية الحجاجية للمقامات مسندة إلى الخطاب الفاعل الذي استُهلّت به والذي لا يقبل إلا الصدق، كما بيّنا ذلك سالفًا.

وإذا كانت مقامات الهمذاني تدعو إلى سرد يعتمد بدل بلاغة الإقناع، شعرية الكتابة المرموزة، وإذا كانت بلاغة الإمتاع مكوّنًا من مكونات المقامات الهمذانية، فإنّ المقامات التي بين أيدينا، بإدخالها أساليب الاستدلال الخطابي، تدعونا إلى سرد يزوج بين بلاغة الإمتاع وبلاغة الإقناع، ممّا يزيد من صعوبة مشروع قراءتها، فإذا كانت قراءة المقامات الهمذانية، وغيرها ممّا جاء على نهجها « مشروعًا خطيرًا وملئيًا بالمجازفة... فالشراح محكوم عليه بأن يتطرق إلى ميادين متنوعة... يكون معجميًا حين يوضح معنى الألفاظ الغريبة... ويكون جغرافيًا حين يصادف اسم مكان... ومؤرخًا حين يصادف شخصية تاريخية... ويكون بلاغيًا حين يسمي الصور البلاغية...»⁽⁸⁾، فإنّنا في هذه المقامات، إضافة إلى كل هذه الصعوبات، مطالبون باستقراء الينابيع التي يستقي منها الخطيب أدلته، كما أنّنا مطالبون باستقراء أساليب الاستدلال التي تميز بها القرآن الكريم.

ومن نتائج دراسة الخطاب القرآني حسب أحوال المخاطبين تصنيف ابن رشد الاستدلال القرآني في عمومته ضمن الاستدلال الخطابي، وأقلّ منه عموماً الاستدلال الجدلي (المناظري)⁽⁹⁾.

1 - الاستدلال الخطابي: يقوم على إثبات الحق بأدلة قطعية أو ظنيّة . وقد نبّهنا إلى أنّ أدلة القرآن قطعية . وهي ما كانت لإثبات الحقائق في ذاتها من غير حاجة مع مجادل ولا مجادلة مع جاحد، وهي متجهة إلى الإقناع وطرائقه، من مشاركة وجدانية ومن إثارة للمشاعر.

2 - الاستدلال الجدلي (المناظري): وهو أقلّ عموماً من الاستدلال الخطابي ويكون الاستدلال فيه مأخوذاً مما يسوقه الخصم من حجج، ويعتمد في قوة الاستدلال على الخصم إذ يتقيد في إثبات الحقائق بحجة الخصم.

ويمكن إدراج المقامات التي بين أيدينا تحت هذين الصنفين، إذ لاحظنا خمس مقامات من صنف الاستدلال الخطابي، حيث يتجه السارد فيها إلى إثبات الحقيقة من غير محاجة مع مجادل، وقد غُيِّبَت فيها حركة السفر عبر الفضاء والزمان وعوّضت بالسفر عبر الأوضاع الاجتماعية، التي تكشف عن أدقّ نوااميس النفس الإنسانية، والتي فطرت على حب جلب النفع ودفع الضرر عنها، لكن كثيراً ما يلتبس عليها مصدر النفع والضرر، خاصة إن اجتمعا وتعايشا في قلب الشيء الواحد، فيزداد تذبذب هذه النفس لصعوبة استيعابها محنة في طيها منحة. وقد اهتم فيها السارد بنفسية القارئ، ووضعها موضع الاعتبار الكامل لصعوبة الموضوع المطروح، وهو ما نلمسه في الأسلوب اللغوي المستعمل، حيث اختيار الألفاظ الرقيقة المثيرة للمشاعر، وانتقاء أساليب الاستدلال، حيث اعتمد في كل مقامة على أسلوب حجاجي يناسب الموضوع وحالة المخاطب المفترضة.

أمّا المقامة الأخيرة فكانت من صنف الاستدلال الجدلي، بحيث تقيد في استدلاله بما جاء على لسان معارضه من حجج تنفي نجاة والذي رسول الله ﷺ من النار. وسنتطرق إليها بالتفصيل فيما يلي (*):

أ - الاستدلال الخطابي:

عند استقراءنا المقامات، ظهر لنا أنّ السارد اعتمد في استدلاله على أصناف متنوعة من الاستدلال الخطابي، هي كالاتي:

1 - الاستدلال بالتعريف: وهو أن يؤخذ من ماهية موضوع القول دليل على الدعوى والاستدلال عليه ببيان صفاته⁽¹⁰⁾، ومن أمثلته في القرآن الكريم، تعريف بعض المحرمات لتبيان حكمة تحريمها، منها تحريم الخمر، فذكر في تعريفها أنها من صنف الخمر والميسر يقول تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ] أما ذكر صفاتها، فذكر ما يترتب عن شربها من أضرار، يقول تعالى: [إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ] ⁽¹¹⁾.

موضوع المقامة الأولى "الحمى"، وبيان تعريفها كما ذكر السارد: « روى ابن حاتم والبيهقي عن مجاهد أحد البحور الزاخرة أنه قال في تفسير الآية . وهي الآية المذكورة في المقدمة الاستهلالية - "الحمى في الدنيا حفظ المؤمن من الورود في الآخرة" » ⁽¹²⁾.

وللاستدلال على حفظها من الورود في النار، يذكر السارد صفاتها وما يترتب على الإصابة بها . رغم ضررها الظاهر . من منافع جليلة الناس منها في غفلة .
يمكن إجمال هذه المنافع في النقاط التالية:

- تذكرة للمؤمن بنار جهنم كي يتوب .
- أفضل الأسقام لتتقية الجسم من الذنوب، لكونها تدخل في كل عضو من الجسم وبالتالي تُعطي كلّ عضو حظّه من الأجر، وتُذهب عنه خطاياها، يقول السارد: « **وهي أقوى الأمراض فيما يعده المؤمن لذخره، وأقوى الأعراض فيما يعد، وأقوى لمحو وزره، لأنها تعطي كل عضو قسطه من أجره، ويترتب عن هذا:**
- **علو ذكره في الفضل بسبب ما قطر منه من عرق الحمى.**
- **فيدخل في سلك الصالحين»**(13).

وكما نرى، فإنّ السارد بدأ بهذه الأدلة التي يفهمها عامة الناس، ثم توجه إلى الخاصة منهم، فيشفي نهم الطبيب المختص، فيذكر أنها تتقي البدن، وتتفي عنه الأذى والعفن وسنده في ذلك قول الأطباء:

- « - كثير من الأمراض يستبشر فيها بالحمى، كما يستبشر المريض بالعافية.
 - وذكروا أنها تفتح كثيرا من السدد، وتنضج من المواد والأخلاط وما فسد.
 - وتنفع من الفالج والقوة، والتشنج الامتلائي والرمد»(14).
- وإذا كان القرآن الكريم في كثير من استدلالاته يتجه إلى الإرشاد والتعليم، فإنّ السارد هنا لا يغفل هذا التوجه، فيقوي به استدلاله، ليزيد من بلوغ الغاية في فضل "الحمى"، فيذكر ما أمر فيها بالرقية، وأصح الكيفيات الطبية للتخفيف من ضررها فينال المصاب بها سعة الأجر والسلامة منها، وهو ما عبّر عنه بقوله: « **فعليك فيها بالرقى والقرى تحفظ منها بالرفا بلا مرا،... وتواتر الأمر بإبرادها بالماء،...ومن الخواص التي ذكرها من انتسر:**
- **نباب يعقد في خيط عهن، ويشد في العضد الأيسر.**
 - **ومما ينفع تعليقه: السمك الرعاد وعظمة جناح الديك اليمنى والطويل العنق من الجراد»**(15).

وهذا الإرشاد - كما نرى - يستفيد منه العامة والخاصة من الناس.

2 - الاستدلال بالتشبيه والأمثال: لا شك أنّ فقد الأولاد من أعظم ما يُصاب به المرء،

فهم ثمرات الفؤاد وفلذات الأكباد، لذا كان السارد في هذه المقامة ذكياً في مخاطبة المعنى بالأمر، ممّا يدلّ على كفاءته التخاطبية في مراعاة السياق المُعين على بلوغ مقاصده التبليغية، وهو ما عُرف في تراثنا بمطابقة الكلام لمقتضى الحال، فكان الاختيار الضروري لكي تتم عملية الإفادة، هو عدم مواجهة القارئ من أول وهلة بحقيقة النفع الذي يجلبه فقد الولد، لأنّ ذلك سيستقرّ القارئ ويدفعه إلى المعارضة من البداية.

لأجل هذه الاعتبارات السياقية، مهد السارد لاستراتيجيته الإقناعية بمجاراة المخاطب فيما يمكن أن يخلج فؤاده إذ يقول: «يا له من صدع لا يشعب، وشعب لا يرأب، يوهي القوى،... ويوهي العظم، ويعظم الوهن ويوهن الأغلاق...»⁽¹⁶⁾. ثم يأخذ المخاطب بموجب هذا الكلام، ويقلب نتائج هذا القول، مستدلاً على ذلك بأدلة قطعية من القرآن، فبقدر مرارة الأمر يكون الجزاء للصابر فيقول: «لا جرم أن الله تعالى حث فيه على الصبر الجميل ووعده على ذلك بالأجر الجزيل، قال الله تعالى فيما ثبت من الأحاديث القدسية وصحيح السنة، ما لعبدٍ جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة...»⁽¹⁷⁾.

ونظراً لوعي السارد بحساسية الموضوع فهو ينوّع من ينابيع الاستدلال ومواقفه، وهو تنويع يأتي معزّراً لاستراتيجيته الإقناعية الرامية إلى التخفيف من حدة الموضوع المطروح وطمأننة النفس، وصولاً بها إلى الاقتناع بحقيقة "النفع الخفي في فقد الولد". فيجيء بالحجة من أقرب الطرق إلى النفس البشرية، ومع هذا التكتيف تزداد الفائدة وتتضافر المعاني. فكانت أولى هذه السبل، تشبيه ما وقع للمخاطب بحال كثير من البشر، يقول: «ومما يجلب الأسى، ويُذهب بعض الأسى، تذكر ما وقع للخلق من ذلك: فقلّ أحد إلا وقد سلك به هذه المسالك»⁽¹⁸⁾ ومنه أيضاً أن يساق الدليل في قصص، والقرآن الكريم قد اتخذ من القصص سبيلاً للإقناع والتأثير، كما كان أعظم تسليّة للرسول ﷺ عند مروره بصعاب الأمور. وما يزيد الدليل المتضمن في القصص قوّة، أن يجيء على لسان شخص معروف وله مكانته في نفوس البشر، فيكون ذلك: «أكثر اجتذاباً لأفهامهم، وأقوى تأثيراً في قلوبهم،... فيعطي الدليل قوة فوق قوته الذاتية، إذ تكون الحجة قد أقيمت عليهم من جهتين، من جهة الدليل في ذاته ومن جهة أن الذي قاله رجل محترم في نظرهم»⁽¹⁹⁾.

ومن هذه القصص التي ساقها السارد، قصة ذي القرنين وما كتبه لأمه حين حضرته الوفاة مرشدا ومعزيا، وما عزى به "الشافعي" عبد الرحمن بن المهدي في ابنه، وقصة ابن المقعدين. وأبلغ من ذلك أن يجيء الدليل على لسان رسول، وفي القرآن الكريم من ذلك كثير، ونذكر على سبيل المثال قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه. يذكر السارد في مقامة "فقد الذرية"، قصة "سليمان" عليه السلام ومحااجة الملكين له حيث شبها الولد كالزراع على الطريق العابرة، فكان مضمون الحجاج كالاتي:

« نزل إليه الملكان، وبرزتا في صورة أخصام، فقال أحدهما:

- إني بذرت بذرا لأحصده، فلما اشتد مرّ به هذا فأفسده.

فقال الآخر:

- إنه بذر على الطريق، فأخذت عليه، ففسد المضيق.

فقال سليمان للأول:

- أما علمت أنّ مأخذ الناس على الطريق العابرة؟

فقال:

- يا سليمان، فلم تحزن على ابنك وأنت تعلم أنك ميت، وأن سبيل الناس إلى

الآخرة»⁽²⁰⁾.

وقد تضمن هذا التشبيه قياساً، من نوع قياس الخلف، وهو «إثبات الأمر ببطلان نقيضه وذلك لأن النقيضين لا يجتمعان»⁽²¹⁾. فإذا ثبت إبطال الاعتراض على بذر الزرع على الطريق، ثبت نقيضه، وهو: الاعتراض على بذر الزرع على الطريق مطلوب. وما دام فقد الولد شبيهاً بالزرع على الطريق، فهذا يستلزم أن يسري على القضية الثانية ما يسري على القضية الأولى.

ثاني السبل التي سلكها السارد، هي اتخاذها أخص ما يتجه إليه القرآن الكريم، وهو سنة التدرج من المحسوس إلى المعقول، ومن الشاهد إلى الغائب، وفي معظم الأحيان لا يتجه فيها إلى مجرد الإلزام والإفحام، بل الإرشاد إلى حقائق الكون.

وهكذا يردّ السارد في استدلاله المسائل إلى أمور بديهية، أو إلى حقائق لا يجادل فيها

اثنان، في كلام نافذ إلى القلب، وبحجج دامغة، فيقول: «ومما يهون أمر الولد في وفاته:

. حصول الراحة من حوادث المرض وآفاته، ومما يقاسيه من الغناء، ومن شدة الضنى»⁽²²⁾.

ثم يطوف به إلى أمور غيبية، كمقر الروح وحقيقة اتصالها بالبدن، ومكانة الولد بعد وفاته في هذا العالم الغيبي، وما يناله من خير، وما يجلبه لوالديه من أجر عظيم مما يدفع الوالد إلى عقد مقارنة بين الحياتين فيتبين له أنه « صار إلى ما هو خير له وأحب إليه »⁽²³⁾.

ويختم السارد المقامة بتأكيد النتيجة التي يكون المخاطب نفسه قد توصل إليها وأقر بها، وهي النفع الخفي في فقد الولد، بعد أن نوع من أساليب الاستدلال التي تخاطب العقل والوجدان معا. وفي هذا التأكيد، تقرب من المخاطب الذي يبدو فيه السارد ضامنا اقتناعه، لذا فهو يبرزه لسانياً بعد أن كان مضمرًا، ويخصّصه بقوله: « فيا أيها الوالد الجريح... »⁽²⁴⁾.

هذا الأسلوب التخاطبي في حد ذاته استراتيجية حجاجية، يسعى السارد من ورائه إلى تحقيق هدفين، هما:

- 1 - تعميم الخطاب في بداية المقامة يكون أثره أقوى من التخصيص، إذ يتيح للسارد استقطاب أكبر عدد ممكن من القراء، ويرغمهم على اتباع حججه.
- 2 - تعميم الخطاب في بداية المقامة يفيد المشاركة في المصاب، فيحدث تأسيًا لا شعوريًا للوالد، ويكون وقع التخصيص، بعد أن ضمن السارد اقتناع الوالد بأن وفاة الولد قضاء مريح، أخف على نفسه.

مما تقدم، نلاحظ أنّ المقامة، اعتمدت الترتيب الوظيفي لأجزاء القول، كما ورد في كتاب الخطابة لأرسطو⁽²⁵⁾، وكأننا بصدد تحليل خطابة.

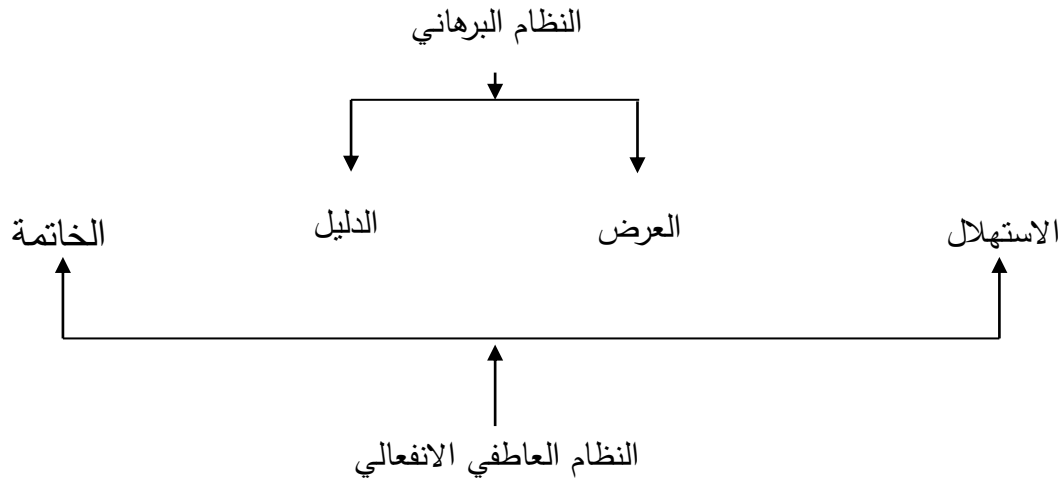
يمكن تلخيص هذه الأجزاء على شكل ثنائيتين، اتخذت كلّ ثنائية كوسيلة لبلوغ الغرض المستهدف منها، وهما: ثنائية (الاستهلال والخاتمة)، وثنائية (العرض والدليل).

- ثنائية الاستهلال والخاتمة: اعتمدت هذه الثنائية على النظام العاطفي، بحيث انبنى فيها الاستهلال على لحظتين هما:

- استمالة المخاطب بمجاراته فيما يمكن أن يختلج فؤاده.

- أخذ المخاطب بموجب الكلام وقلب نتائج قوله.
- أما الخاتمة فقد انبنت على لحظتين كذلك وهما:
- الإعادة والتلخيص، حيث أكد فيها على النتيجة التي توصل إليها.
- إثارة العواطف، وقد اعتمد السارد في ذلك على توجّعه المباشر إلى المخاطب وإبرازه لسانيا بعد أن كان مضمرًا.
- **ثنائية العرض والدليل:** اعتمدت الثنائية على النظام البرهاني، بحيث انبنى العرض فيها على الوضوح والاختصار الشديد، إذ لا يزيد دوره على إعداد المخاطب لمرحلة البرهنة.
- أما البرهنة، فقد نوع فيها السارد من أساليب الاستدلال، وذلك مراعاة لطبيعة القضية المطروحة.

يمكن وضع خطاطة لسيرونة ترتيب أجزاء القول في المقامة كآلاتي (*).



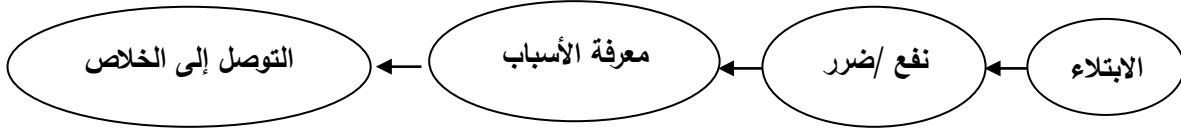
3 - ميزان التلازم: (*) تتفاعل المقامتان "النيلية في الرخاء والغلاء" و"الدرية في الطاعون والوباء"، وتتسجمان كما لو كانتا نصا واحدا، ويظهر ذلك من حيث ترتيب الوقائع فيهما، يقول السارد: «لما كان في أول سنة سبع وتسعين وثمانمائة»⁽²⁶⁾، «لما كانت سنة سبع وتسعين وثمانمائة، أوفى النيل في منتصف مصرى...ونسوا ما تقدم في هذا العام من هول الطاعون»⁽²⁷⁾، حيث يحكي في المقامتين ما أصاب الديار المصرية والشامية سنة 897 م من جزاء مصائب الطاعون ونقصان النيل. وكما نعلم فإنّ الترتيب العادي للوقائع في الخطاب، هو مظهر من مظاهر انسجامه حسب فان ديك، لكن دون أن يعني بذلك أن الخطاب لا ينسجم إذا خالف معرفتنا العادية للعالم ف «إذا كانت الجمل تدل على الأحداث في عالم ممكن، فإن انتظام

سلاسل من الجمل ينبغي أن يدل على مجموع منظم من الأحداث،... ويسمى هذا الترتيب للخطاب ترتيباً عادياً،... إلا أنه في معظم الحالات تكون العلاقة الموجودة بين الكلام والعالم أقل استقامة وصراحة...»⁽²⁸⁾. كما تتسجم المقامتان انطلاقاً من مبدأ التشابه، وهو من مبادئ الانسجام التي قررها كل من "براون" و"يول"⁽²⁹⁾، حيث يكتفي السارد في المقامتين، بالسرد التاريخي المستمد من منبع لا يدخله الشك في يقينه وحقيقته، فذكر الأخبار في قوله: «لما كانت أول سنة سبع وتسعين وثمانمائة، وردت الأخبار عن الأخبار...»⁽³⁰⁾ يتجاوب تجاوباً كاملاً مع الجو العام المتميز باليقين الذي تخلقه البداية الاستهلاكية، ثم يوكل مهمة تقديم البنية الحجاجية في المقامتين إلى المستوى التخاطبي الثاني، فتُصنّف شخصيات المقامتين على هذا الأساس، ضمن شخصيات الحيلة كما يسميها هنري جيمس "H. James"، إذ إنها: «لا تظهر إلا لكي تتحمل وظيفة في التسلسل السببي للأفعال»⁽³¹⁾. ثم إن تشابه خطاب الشخصيات في المقامتين - إذ تستعمل نفس ألفاظ العلوم ومصطلحات الفنون - يجعلنا نجزم أنها الشخصيات ذاتها في المقامتين، مع الإقرار بصعوبة تحديد هويتها فذلك يحتاج من القارئ إلى موسوعة ثقافية، تمكنه من فهم التوريات المستخدمة والمصطلحات التي تنتمي إلى فنون متخصصة متنوعة، مثلاً قول إحداها: «هذا باب الإدغام الكبير في اللحد، والإخفاء لكل بدر منير مغرب في الأخدود، والإقلاب لكل عبد أبق إلى فلك الردي، ويرر ودود»⁽³²⁾. فلو غاب عن القارئ معنى هذه المصطلحات: الإدغام، الإخفاء، والإقلاب، لاستحال عليه أن يتعرّف على هوية المتكلم وهو مقرئ القرآن. وهذه الصعوبة يقرّ بها السارد نفسه، فيلجأ إلى تحديد هوية إحداها فيذكر: «وقال الأصولي: كم مضى فيه من مندوب، وفات من مطلوب...»⁽³³⁾.

إن تشابه خطاب الشخصيات سمح لنا بالانتباه إلى استعمال السارد تقنية مستحدثة في السرد وهي "التقصص" حيث «يحصل بشكل أساسي عن طريق حذف الربط بين مستوى تخاطبي أعلى وآخر أدنى»⁽³⁴⁾. فبين مستوى الدرجة الأولى: كلام السارد ومستوى الدرجة الثانية: كلام الشخصيات، نجد غياب علامات التنصيص، ما يجعل خطاب السارد يلتبس بخطاب الشخصيات. ولولا عودة الشخصيات ذاتها في المقامة الثانية لما انتبهنا لهذه التقنية التخاطبية. ولقد سمحت لنا عودتها بإدراك الطريقة التي اتخذتها لصناعة أفعال دينية فردية

بالكلمات، والتي تعبّر في مجموعها عن رسالة نابعة من قصدية مشتركة، تتمثّل في توجيه القارئ والأخذ بيده للوصول إلى الحقيقة المطروحة المحدّدة في ثنائية (نفع/ضرر) في قلب الشيء الواحد، والتي تُجسّد موقفا من الحياة باعتبارها دار ابتلاءات، لا تثبت على حال، وهو ما عبرت عنه إحدى الشخصيات بقولها «**اشكروا الله على بلائكم، ...وقيدوا هذه النعمة بسلسلة الطاعة**»⁽³⁵⁾.

فالابتلاء ظاهره ضرر، والشكر عليه لا يمكن فهمه في إطار مقتضياته اللغوية، وإنّما وفقا لمقتضيات السياق الثقافي الذي ورد فيه، فالمسلم يعتقد أنّ الابتلاءات بأنواعها مهما تتعاضد، كلها خير، حتى وإن خفي نفعها، والفعل الكلامي "الحمد" الذي تكرر بكثرة في أقوال الشخصيات، له دلالة خاصة في المجال التداولي الإسلامي، ويعرّفه الجرجاني في قوله: «**الثناء على الجميل من جهة التعظيم من نعمة وغيرها**»⁽³⁶⁾. والشخصيات في هاتين المقامتين لا تأتي لتكرر المعنى الذي قصده السارد في المقامات السابقة، أو تقدم نموذجا آخر من مشاكل الحياة الاجتماعية، بل تأتي لتحركه، وتدفعه إلى أقصى حدود البوح، وتظهره في شموليته، وقد توصلت إلى بناء هذا الموقف من التلازم الحاصل بين المؤولات التي تتولّد عن العلامة الأولية المتمثلة في الابتلاء والتي يمكن تحديدها كما يلي:



وتبيان تلازمها، أنّ الحياة كلّها صور من الابتلاءات، مهما كان نوعها، ترسم صورة ثنائية (النفع/الضرر)، وتستلزم وجود أسباب، ومعرفة هذه الأسباب تستلزم بدورها سبيلا واحدا للخلاص لا يحتمل غيره.

هذا ما صرحت به الشخصيات بصناعة أفعال كلام تُوجّه القارئ إلى معرفة أسباب الابتلاء، والتي يمكن إجمالها في قضية واحدة هي: الابتعاد عن المنهج الذي حدده الله تعالى لخلق، ومثال ذلك ما ورد على لسانها:

«- ما لنا عدنا نروي عن قل بن قل، بعد أن كنّا نروي عن بن كثير؟

- هذا خبر معضل، عوقب به من ضل،... إنما هي أعمالكم ترد إليكم.

- لو اتقيتم الله لأزاح عنكم الضير، ولو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير» (37).

ولتوجيه القارئ إلى الخلاص، أكدت على فعل كلامي يتكرر في المقامين:

«- لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم.

- ولئن هجم هذا "الداني" بحملته على القوم ليقولن كلّ امرئ منهم: " لا عاصم اليوم" 26 الرحمن» (38).

وفي هذا التوجيه يكمن النفع الخفي في الضرر الظاهر، الذي يخفى على كثير من البشر.

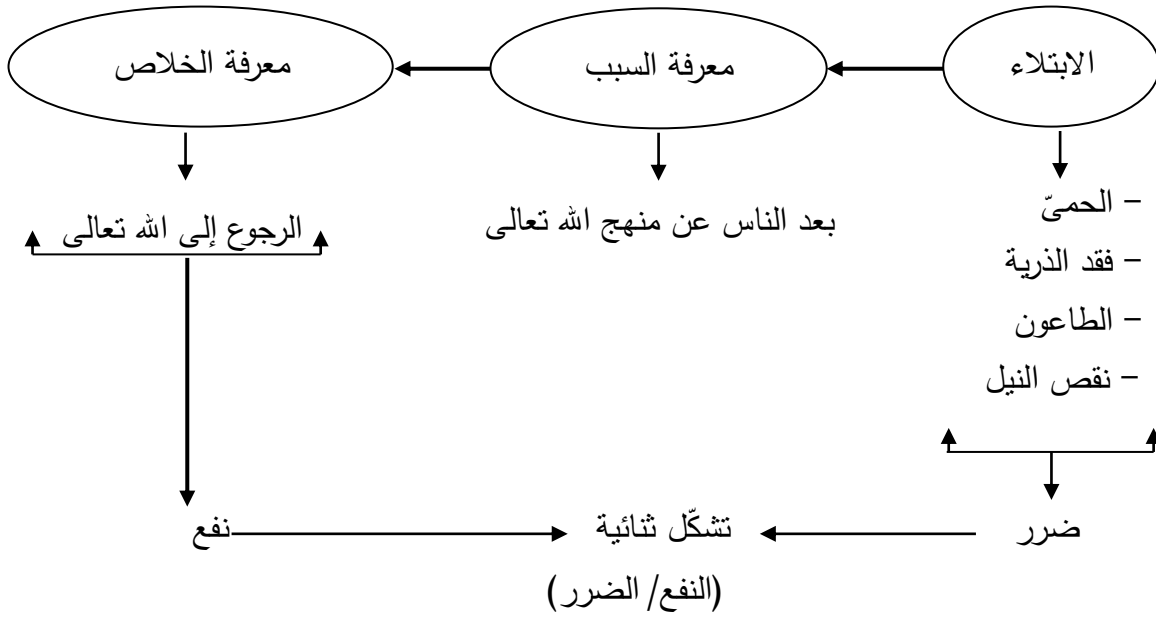
كما أنجزت أفعالا كلامية تفصّل فيه هذا التوجيه، منها:

«- اعلموا أنّ المال والولد عارية مردودة، ووديعة لاشك إن طال المدى مفقودة.

- عليكم بحسن التدبير في الطاعة، والمتابعة للسنة والجماعة.

- بادروا من التوبة بالهفوات، قبل أن تدخلوا باب الحصار والفوات» (39).

هكذا يمكن تحديد ثنائية (النفع/الضرر) لكل القضايا والمشاكل المطروحة في هذه المقامات، من خلال قانون ميزان التلازم الذي يربط بينها في الشكل التالي:



وهكذا يرسم السارد عبر تقنية نقل كلام الشخصيات، صورة التلقي التي يتمنى أن تحظى بها هذه المقامات، فيفتتح القارئ كما اقتتعت الشخصيات.

4 - التعميم ثم التشخيص: يأتي المكان ليساهم في تشييد ثنائية (النفع/الضرر) في قلب الشيء الواحد، وكأن الحدود تتمحي بين الإنسان والمكان، ويأخذ المكان طابعا إنسانيا فيكون الإنسان منظورا إليه من خلال المكان، ويكون المكان منظورا إليه من خلال الإنسان، ويتحوّل من مكان محسوس إلى مكان مجرد، فيُضفى عليه طابع فلسفي صوفي.

ولبلوغ هذا المقصد، انطلق السارد من إثبات القضية بإجمالها منذ بدء التواصل بينه وبين القارئ، باعتماده السلم الحجاجي الذي يرجع إليه في استنباط أحكام الفقه الإسلامي المتمثل في: أدلة عقلية وهي الكتاب، السنة، قول الصحابي. وأدلة عقلية وهي الإجماع، القياس. خلافا للمقامات السابقة، حيث كان ينشر هذا السلم كبساط على أرضيتها، وقد يمتد إلى آخر المقطع كما في مقامة الحمى، حيث يختمها بما يلي: «**ووفور مغاليها لمغاليها، ووفور معانيها عند معانيها رغب جماعة من السلف فيها، ودعت طائفة من الصحابة بملازمة الحمى لها إلى توفيقها**»⁽⁴⁰⁾.

أما في مقامة الروضة فإنه يذكر هذا السلم إجمالا في بدايتها على النحو التالي:

«**نطق الكتاب والسنة بأن أرض مصر أحسن البقاع.**

وتضافرت على ذلك آثار الصحابة والأتباع.

وانعقد عليها الإجماع.

وشهد الحسن بأن الروضة منها كمركز الدائرة فهي لها كالمقطب والأساس.

وقام النظر على أنها أنزه بقعة فيها.

فأنتج: أنها أحسن البقاع بما صح فيها من القياس»⁽⁴¹⁾.

ثم ينتقل إلى وصف المكان، لكن وظيفته هنا ليست «زخرفاً وتنميقاً، يكون في شكل مقاطع مستقلة عن السرد»⁽⁴²⁾، إنّما وظيفته تحليلية حجاجية، يسهم في بناء الدلالة، وفي توضيح جزئيات النص العامة المتمثلة في أنّ اكتمال حسن المكان يتمثل في احتواء تفاصيله دلالة (النفع/الضرر). وهنا لا تصبح اللغة مجرد أداة إخبار بقدر ما هي وعاء لفكر قائله وشعوره، فيستطرد، ويطول المشهد الوصفي، ولا يعتمد إلى التبسيط والانتقاء والتركيز على أشياء دون أخرى، ويصبح المكان خالق السرد ومؤثراً فيه وحده، وكأنّه الفاعل وحده دون سواه لقدرته على احتواء هذه الثنائية. ولعل المكان نفسه ساهم في خلق جودة فهم شخصيات المقامتين "النيلية في الرخاء والغلاء" و"الدرية في الطاعون والوباء".

هكذا تصبح لجزئيات الوصف وظيفة حجاجية، تأخذ شكل ثنائيات متضادة ومجموعها يؤدي إلى إثبات الدلالة العامة للنص، لأنّ السارد في انتقاله إلى التخصيص: «يبرهن على أن كل جزء منها يؤدي إلى إثبات الدعوى المطلوب إثباتها، وأنها في مجموعها تؤدي إلى إثبات الدعوى»⁽⁴³⁾، وهو ما يقابل مفهوم الفئة الحجاجية في الدراسات اللغوية الحديثة. يمكن تحديد أجزاء الثنائيات المتضادة كما جاءت في وصف المكان كما يلي:

- (خفضة/ ربة)

- (جمعية/خلوة)

- (فقراء/ أغنياء)

- (أذكاء/ أغبياء)

- (ذوو هانات/ أتقياء)

وفي اجتماع هذه الثنائيات المتولدة عن أدق تفاصيل وصف المكان، تكتمل صورة ثنائية (النفع/الضرر)، وفي اكتمال صورتها تظهر النتيجة المصرّح بها في بداية النص:

"أحسن البقاع". فما جعل من المكان أحسن البقاع قدرة احتواء تفاصيل أجزائه على هذه الثنائية.

لقد ساهم المكان في تقديم رسالة، تكمل رسالة شخصيات المقامتين سالفتي الذكر وتتمحور في أن النفع والضرر مثله مثل الخير والشر، سُنّة كونية لا تختص بالإنسان وحده. وليس هذا التصوّر وليد تأملات فكرية مجردة، بل هو تصوّر من صلب الواقع (المكان).

ب . الاستدلال الجدلي:

نشير في البداية إلى أنّ النص المدرج تحت هذا الصنف، يُقدّم بناءً تخاطبياً متميزاً عن النصوص السابقة، ولعل أهم ما يميزه إفصاحه اللساني عن العلاقة التخاطبية التي تجمع المؤلف بالقارئ، والتي تعكسها عمليتا التأليف والقراءة معا وتفيد تجاوز المتكلم مع كلامه، وهو « تجاوز مادي بالدرجة الأولى، تفرضه آلية التواصل والتخاطب، وهو ملازم من حيث المبدأ لكل عملية قول أو كلام »⁽⁴⁴⁾. وهذا المفهوم يلتقي بتحليل باختين لبُعدي الزمان والمكان في العمل الأدبي عامة والروائي خاصة فهو « يضع دائما المؤلف والقارئ في زمان واحد، على المسافات الزمنية التي قد تفصل بينهما، وهذا الزمان هو خارج كل الزمكانات المصوّرة فيه، وما يحتويها كلّها »⁽⁴⁵⁾.

لا يقتصر هذا الإفصاح اللساني على حاشية النص، التي صرّح فيها السارد بكل ما جاء في المقامة والهدف من وراء تأليفها، يقول: «وقد أنشأت هذه المقامة... وخدمت بها السنة الشريفة المصطفوية... وقد رجوت بها الفوز بجنات النعيم وتوسلت إلى مرضاة هذا النبي الكريم... أتحتف بها كل ذي ذهن قويم... وفوق كل ذي علم عليم»⁽⁴⁶⁾، بل يتعدى هذا التصريح إلى متن النص، وذلك باستعماله علامات لغوية تحيل إليه، وهي ضمير المتكلم المفرد في قوله « ولقد وصل إليّ عن رجل من أهل الحديث... فقلت للناقل... »⁽⁴⁷⁾، وضمير المتكلم الجمع الذي يجمع بينه وبين القارئ في قوله «... ونعود إلى ما نحن فيه...»⁽⁴⁸⁾، هذه العلامات التي تُحيل إلى المتكلم وزمان كلامه ومكانه، يسميها بنفنتست علامات فارغة، وهي فكرة انتقدتها أوريكيوني إذ تقول: « يمكن للضمير ألا يكون له موضوع، ولكنه يستحيل ألا يكون له مفهوم، فلولا تعذرت الترجمة من لغة لأخرى »⁽⁴⁹⁾.

والبناء التخاطبي لهذه المقامة له دلالاته في النص، فهو مرتبط بالأسلوب الاستدلالي المعتمد فيها، القائم على الجدال والمناظرة، وقد صرح به في قوله « ولقد وصل إلي من رجل من أهل الحديث أنه ذكر ما قتلته فصاح، وأعرض بوجهه وأشاح، وأجرى من فمه سيلا... ليت شعري ما الذي أنكره علي؟ وفوق بسببه سهامه إلي؟ »⁽⁵⁰⁾. ولكون «الفلج على الخصوم لا يكون مستورا، بل يكون له صفة الشياخ بين الناس»⁽⁵¹⁾ ترابط هذا الشياخ مع إفصاح السارد عن العلاقة التخاطبية التي تجمع بينه وبين القارئ لأنّ التوجّه في الرد على الاعتراض لم يكن يُقصد به المعترض، وإنما كان يُقصد به القارئ، ولهذا التوجه أهميته في تأويل النص، إذ تحيلنا هذه النقطة إلى ضوابط العلاقة التخاطبية في مبدأ التصديق الإسلامي، واختلافها الجوهرية عن ضوابط العلاقة التخاطبية في تصوّر اللسانيين في العصر الحديث، ويبرز هنا تحديدا، اختلافها في قاعدة القصد⁽⁵²⁾. فالقصد في العلاقة التخاطبية وفق تصوّر اللسانيين في العصر الحديث، يتفرع من الجانب التبليغي، وينقسم إلى:

- قصد التوجّه.

- قصد الإفهام.

أما قاعدة القصد في مبدأ التصديق الإسلامي، فإنّها تتفرع من الجانب التعاملية ويترتب عليها أمران:

- وصل المستوى التبليغي بالمستوى التهذيبي للمخاطبة.

- إمكان الخروج عن الدلالة الظاهرة للقول.

وإذا تفقدنا استراتيجية السارد في تقديم بنيته الحجاجية، أمكن لنا تبين قصديته من خلال النص، دون أن نتكلّم نيابة عنه، إذ لا نملك القدرة على الحكم بدون أدلة يمنحها النص أولاً.

مهد السارد لهذه البنية الحجاجية بمقدمة استدلالية، رغم طولها النسبي، تنظمها قضية صغرى واحدة، فكل ما ذكر من خصائصه ﷺ يأتي هنا لخدمة المحور العام للنص، وهو نجاة والدي رسول الله من النار، ولم يشأ الدخول من أول وهلة في صراع مع المعترض، أو الرد عليه كما كان مفترضا، لسبب يبدو لنا جليا، وهو أنّ هذا الغرض لا يدخل في مقصديته

التواصلية. فلم يكن القصد من الرد على الاعتراض الدخول في علاقة تخاطبية مع المعارض لإفحامه وإبطال اعتراضه، فهذه العلاقة انقطعت لعدم توفر الجانب التعاملية فيها، وهنا نؤكد على أهمية هذا الجانب في استمرار العلاقة التخاطبية، يقول في ذلك: « ولقد وصل إلي عن رجل من أهل الحديث ... أنه ذكر ما قلته فصاح،... وقال فحشاً وهجر،... ولو أنه اقتصر على ذكر المنقول من غير سفه لم يكن عليه من باس، [إنما السبيل على الذين يظلمون الناس] الشورى 42 أفرحوا بالعلو،... أم إعظاماً لنفسه واستكباراً، واحتقاراً لغيره واستصغاراً؟ » (53).

كما يظهر كذلك من خلال توظيفه لضمائر الشخص، فحين يتوجه إلى المعارض عبر تقنية النقل المباشر، يستعمل ضمير الغائب، كما يتضح من المقطع السابق، أما حين يروم عرض استدلاله على نجاة والدي الرسول p، فقد كان يحرص على تأكيد توجهه إلى القارئ، فيوظف ضمير المتكلم الجمع، فيقول: « ونعود إلى ما نحن فيه ليت شعري ما الذي أنكره علي؟... » (54).

إذن فقصد السارد ليس الدفاع عن الذات ورد الاعتراض، إنما الدفاع عن السنة وتبيين الحقيقة للقارئ، يقول: « إنما الدفاع عن السنة الشريفة المصطفوية الطاهرة... ورجوت بها الفوز بجنت النعيم » (55).

هذا القصد أثمر عنده مسؤوليته التهذيبية، أولاً تجاه رسول الله ﷺ وثانياً تجاه القارئ، لأن الحديث عن رسول الله في الثقافة الإسلامية تضبطه آداب، واختراقها يحبط أعمال الشخص يقول الله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ] (56)، وهو ما يظهر في قول السارد: « أم أنكر علي السكوت عن القول الآخر،... فلأن العلماء أرشدوا في مثل هذا إلى الصمت، وعدوه من حسن الأدب والهدى والسمت » (57).

أما مسؤوليته التهذيبية تجاه القارئ فتظهر من خلال قوله: « لأن السائل عن ذلك ممن يقرأ المعاد،... ويحضر عليه النساء والعوام، ومن هم بعيدي الأفهام، ومن هم حديثو عهد بالإسلام، أفأكون سبياً في وصول ذلك إلى أسماعهم... » (58).

فبمراعاة السارد تفاوت المدارك في الفهم، صان لسان المخاطب مما يجلب له الضرر دون أن يكون واعيا بذلك. كما أن التهذيب يشترط "العقلانية العملية"، فوازن بين مختلف المسالك والوسائل الكفيلة بتحقيق مقاصده، وتخيّر منها أفضلها تحقيقا لهذه المقاصد، ومنه تحددت وظيفته التبليغية فلم ير حاجة إلى ذكر الأدلة القائلة بعدم النجاة ما دام ذلك لا يتعارض مع « أصل من أصول الدين يخشى من السكوت عنه ضياع أو زلل، أم عبادة فيحصل بالصمت عنه فساد فيها أو خلل؟ ... كلا بل الأدب مطلوب ... والصمت عن كثير من الأشياء واجب أو مندوب » (59).

وبهذا « يتضح أن قاعدة القصد تأخذ بعنصر العمل من الجانب التهذيبي، سواء من جهة المتكلم أو من جهة المخاطب، فتكون بذلك متميزة عن مبدأ التأدب لـ "لاكوف"، هذا المبدأ ... الذي صار بموجب نزعته التجريدية إلى إسقاط عنصر العمل الحي منه » (60).

لقد اتضح لنا من خلال هذا النموذج من العلاقة التخاطبية، مميزات قاعدة القصد في مبدأ التصديق الإسلامي، واختلافها الجوهرية عن قاعدة القصد في تصور اللسانيين في العصر الحديث، فهي تنفرد من الجانب التعاملي، وتصل المستوى التبليغي بالمستوى التهذيبي للمخاطبة، ثم إنها تأخذ بعنصر العمل فيها، فمن المعلوم أن «التهذيب ينبني أساساً على مفهوم العمل، إذ هو تقويم للسلوك وتوجيهه إلى محاسن الأخلاق، أو قل بإيجاز إن التهذيب أصلاً عمل إصلاحي» (61).

ينقض السارد في ختام المقامة دعوى المعارض، وفي هذا المستوى يتجه إلى «إبطال دليل المدعي بأساليب مختلفة، كأن يبين أنه لا يستلزم غيرها، أو أنه يستلزم التسلسل أو الدور، وما يذكره لبيان وجوه الفساد هذه يعرف بـ "الشواهد"» (62). فكان مضمون دعوى المعارض، أن المقصود بقوله تعالى: [إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ] هما والدا رسول الله، ولإبطالها تدرج السارد من شواهد عقلية في قوله « فَإِنْ احتج في التعذيب بضعف، فأحاديث النجاة مع كونها أمثل منه أولى بالقبول » (63) إلى شواهد عقلية، تفرّعت إلى شواهد نصية وشواهد مقامية، وأخيراً منطقية.

أما الشواهد النصية، فقد رجع فيه إلى المعنى المعجمي لكلمة "الجحيم"، حيث قال « أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك أحد التابعين الأبرار في قوله تعالى : [أصحاب

الجحيم] البقرة: 119، قال الجحيم: ما عظم من النار،...فالاتق بهذه المنزلة من عظم كفره، واشتد وزره وعاند عن علم ويقين،... ولا يليق ذلك بأهل فترة لا علم عندهم ولا كتاب ولا عناد...»⁽⁶⁴⁾.

ومنها أيضا تحديده ما يحيل إليه "أصحاب الجحيم" في النص في قوله: «نلك أن الآيات من قبل ومن بعد كلها في أهل الكتاب، ومن قوله: [يا بني إسرائيل اذكروا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ] آية 40 أولاً إلى قوله: [يا بني إسرائيل اذكروا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ] المتلوة بقوله: [واذ ابتلى] البقرة: 124.

ولهذا ختمت القصة بمثل ما صدرت. وكرر نداء بني إسرائيل إيدانا بالختم لطولها حين تقرر، فدل أن المراد بأصحاب الجحيم كفار أهل الكتاب، الحائدون عن الإنابة والمثاب»⁽⁶⁵⁾.

يبدو السارد من خلال هذا الاستدلال واعيا بالدور الذي تلعبه الإحالة في اتساق النص، ومساعدة القارئ في قراءة النصوص الطويلة، لأن «قراءة نص ذي طول تتطلب وقتا وهذا الوقت ليس مستمرا، وإذا لم تكن هناك عناصر تساعد على الاحتفاظ بما قرأ، فإنه لا يستطيع أن يعطينا ملخصات عما قرأ»⁽⁶⁶⁾. كما يبدو السارد واعيا بأهمية السياق الخارجي في إضاءة النص وانسجام التأويل، ودوره في تخصيص الدلالة اللغوية، فمن مظاهر تأثير السياق في تفسير الخطاب وتأويله:

« 1 - تخصيص الدلالة اللغوية للتعبير المستخدم من قبل المخاطب.

2 - تعميم الدلالة.

3 - تغيير الدلالة: حيث تدل من الناحية اللغوية المحضة على الاستفهام مثلا

وباعتبار مراعاة السياق على النفي»⁽⁶⁷⁾.

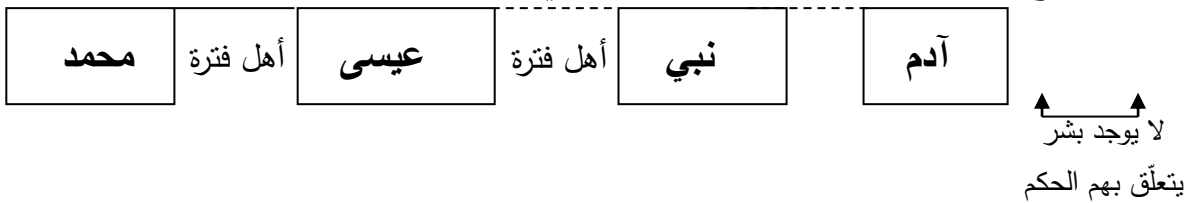
وهكذا، تمكن من تخصيص الإحالة النصية وتحديدها مقاميا، في قوله: «ويؤكد ذلك، أن السورة مدنية، خوطب فيها بنو إسرائيل الذرية، وأكثر ما خوطب فيها اليهود، الناقضون ما في التوراة من العهود، ويشهد له من المنقول ما أخرجه الفريابي، وعبد بن حميد عن مجاهد أحد أئمة التنزيل قال: "من أربعين آية من سورة البقرة إلى عشرين ومائة في بني إسرائيل»⁽⁶⁸⁾ يتوافق هذا الاستدلال مع الدراسات الحديثة في تمييزها بين

الإحالة النصية والإحالة المقامية، وضرورة تحديد ما تشير إليه من أجل تأويلها «**فالعناصر المحيلة كيفما كان نوعها لا تكفي بذاتها من حيث التأويل** إذ لا بدّ من العودة إلى ما تشير إليه من أجل تأويلها»⁽⁶⁹⁾.

هذه النقطة تدعونا إلى تمييز الإحالة من المشار إليه، فكثيرا ما يتداخل المصطلحان رغم اختلافهما. فدلالة المشار إليه دلالة عامة مقيدة بسياق القول، في حين أنّ الإحالة هي «**ما يتوصل إليه عن طريق تعبيرات اللغة ومقتضياتها بحكم الوضع بصرف النظر عن السياقات المخصصة والمعنية**»⁽⁷⁰⁾. وبتعبير آخر، نقول إنّ الإحالة ترتبط بالجملة أو التعبير اللغوي، أما المشار إليه فيرتبط بالقول.

أمّا ما أورد من استدلال منطقي، فكان لإبطال دعوى أنّ والدي رسول الله ليسا من أهل فترة، لتقدم دعوة عيسى عليه السلام، فأثبت منطقيا أنّ هذه الدعوى تستلزم غيرها، فلو كان تقدم دعوة عيسى عليه السلام يمنع أن يكونا من أهل الفترة لاستلزم ذلك «**أن لا يوجد في الدنيا أهل فترة في زمان محرر، فإن الأنبياء قبل عيسى مبعوثون في أقطار العالم، وما من فترة متقدمة إلا وقبلها نبي إلى آدم، وليس قبل آدم بشر يتعلق بهم أحكام... فإن اعتبرنا تقدم بعثة ما... استحالت أحاديث أهل الفترة، إذ لم يوجد بهذا الوصف قوم يحكم بها عليهم**»⁽⁷¹⁾.

ولتوضيح هذا الاستدلال نستعين بالشكل التالي:



بعد كلّ ما تقدم، غني عن البيان أنّ السارد من المتمرسين على أساليب المناظرة وأثبت من خلال تنويعه في أساليب الاستدلال، أنّه يمتلك كفاءة حجاجية عالية، وأنّه متمرس على تأويل النصوص القرآنية، واعتماده في ذلك على المعنى الحرفي والسياق بمفهومه الواسع، أي سياق النص، والسياق الخارجي الذي يشمل كلّ ملابسات القول.

- تعالق خطاب المقامات

لمسنا بوضوح في ثنايا التحليل، مقومات الانسجام في المقامات، بحيث يمكن اعتبارها خطابا واحدا، وهذا يقوم دليلا على أنّ انسجام الخطاب ليس شيئا معطى، إنما القارئ هو

الذي يسند إليه هذه المقومات فالمقامات تبدو للوهلة الأولى، كل واحدة منها شذرة متوقعة حول ذاتها، لكنها وإن تنافرت مع السياق الموضوعاتي الذي تندرج فيه، فإن حركتها السردية تجعل تلافي تشتتها يجري في الاختيار الافتتاحي للمقامات، إنه طريق مختزل إلى ما سوف يتطور لاحقاً في النص، وإن لموقعه في النص مهام تداولية تجعل منه المدخل الأساس للنص وبوابته الأصلية التي يتم من خلالها إدراكه والقبض على أبعاده الدلالية.

من هنا فهو يمارس على المتلقي آثاراً لا يمكنه تجاوزها، إنه أداة مساعدة له تمنحه معنى قلبياً محدداً، وترغمه بعد ذلك على الدخول في رحاب الخطاب وتتبع دلالاته.

إن دلالة الخطاب مادة مبعثرة ضمن تفصلات استراتيجية السارد، « **الذي خطط لها بطريقة مخصصة، وعلينا كمتلقين لملمة هذه المادة الدلالية المبعثرة داخلها** »⁽⁷²⁾. فننتقل إلى تواترها، ونصبح كقراء متمرسين قادرين على الاحتفاظ بخطوطها العريضة، من خلال ما تراكم لدينا من معارف للنصوص التي قرأناها سابقاً. فالمواضيع المتنوعة تتوحد لتشكل نماذج تطبيقية من المشاكل الاجتماعية تم تحليلها في رسالة شخصيات الخطاب، التي قامت بللمة دلالاتها المشتركة، وهذه الدلالة تمت البرهنة عليها بأساليب استدلالية متنوعة تتوحد بدورها، أي هذه الأساليب، في انبثاقها عن مصدر مركزي، يعتمد محور الترتيب السلمي الذي يبدأ من الأدلة العقلية إلى الأدلة العقلية.

ومن نافلة القول أن نذكر أن هذه البنية الاستدلالية تستهدف بالضرورة المتلقي الذي حظي باهتمام كبير في الخطاب، وترتب عن ذلك الاهتمام بنسق يمتلكه. ولقد شكّل الخطاب قالباً للعديد من الأنساق. والنسق هو « **مجموعة من العلاقات تنتج داخل نص معين، ومن نص آخر قد نسرده العناصر التي يتكون منها: الأغراض البلاغية، الأدب، الوظيفة الاجتماعية للنص، الأفق الثقافي ... لكننا لن نفعل شيئاً إذا لم نبرز النظام الذي يجمع هذه العناصر ويكوّن منها وحدة لا تتجزأ** »⁽⁷³⁾.

وفي ثنايا هذه التعددية نجد الجملة البلاغية المتوهجة، وصوت الثقافة المتمثل في معارف عامة في الطب والتاريخ والاستشهاد بالقرآن والسنة وأقوال السلف الصالح والاستشهاد بالشعر... كل هذا يعطينا تصوراً لمجتمع منفتح على معارف كثيرة ولمنهجه في اقتنائها، الذي يعتمد على وفرة الاستشهادات وتنوعها. ولقد اعتنى النقاد العرب بهذه المسألة وميّزوا بين أشكال الاستشهادات التالية:

- «- الاقتباس: وهو التمثيل بنص قرآني أو حديث نبوي.
 - التضمين: وهو الاستشهاد ببيت أو عدة أبيات من الشعر.
 - الحل: وهو نثر بيت من الشعر.
 - العقد: وهو عكس الحل.
 - التلميح: ويعني الإشارة إلى قصة مشهورة أو اسم معروف
- فنوعُ الاستشهاد يشير إلى انتماء المؤلف، وتنوعه ينبئ عن انتمائه إلى الخاصّة والمنهج المعتمد في الاستشهاد يشير إلى انتساب المؤلف إلى مدرسة فقهية تعتمد على الكتاب والسنة المصدرين الرئيسيين للتشريع. «⁽⁷⁴⁾
- هكذا فهما الخطوط العريضة التي تجمع بين المقامات، حيث قامت إيقاعات السرد بدور حاسم فيها، واعتمدت استراتيجية محكمة الصنعة.
- إن أدوات التحليل التي اعتمدناها في تحليل هذه النصوص كانت ضرورية لإنجاح عملية التأويل، فلقد مكنتنا من استكناه خاصية انتظام النصوص الذي يختفي وراء التشتت والانقطاع، فمن خلالها توصلنا إلى انسجام المقامات، بحيث يمكن اعتبارها خطابا واحدا يربط بينها مسار سردي يصل القراءة.

الهوامش:

- 1- مريم فرانسيس، في بناء النص ودلالته، نظم النص التخاطبي الإحالي، د.ط، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 2001، ص 87.
- 2 - جلال الدين السيوطي، مقامات السيوطي الأدبية والطبية، تعليق وتحقيق، محمد إبراهيم سليم، د.ط، دار الهدى عين ميلة، الجزائر، د.ت، ص 152.
- 3 - سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ط 8، دار الشروق، بيروت، لبنان، 1983، ص 11.
- 4 - مريم فرانسيس، في بناء النص ودلالته، ص 278.
- 5 - أبو حامد الغزالي، إجماع العوام عن علم الكلام، تصحيح وتعليق محمد المعتصم بالله البغدادي، ط 1، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1985 م، ص 81.
- 6 - ابن رشد، فصل المقام، نقلا عن محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري تطبيقي لدراسة الخطابة العربية، القرن الأول نموذجاً، ط 1، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1986، ص 31 - 32.
- 7 - الإمام أبو زهرة، المعجزة الكبرى، القرآن، د.ط، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت، ص 368.
- 8 - عبد الفتاح كيليطو، المقامات، السرد والأنساق الثقافية، ترجمة، عبد الكبير الشرقاوي، ط 1، دار توبقال للنشر، المغرب، 1983، ص 75، 165، 167.
- 9- أبو زهرة، المعجزة الكبرى، القرآن، ص 346، 356.
- * - اعتمدنا في تصنيف هذه الاستدلالات داخل المقامات على كتاب الإمام أبو زهرة، المعجزة الكبرى، ص 347، 351، 357.
- 10- أبو زهرة، المعجزة الكبرى، القرآن، ص 7، 34.
- 11 - الآيات 12-13 من سورة المؤمنون.
- 12 - المقامات، ص 152.
- 13- م ن، ص 156.
- 14- المقامات، ص 156، 157.
- 15 - م.ن، ص 157، 159.
- 16- م ن، ص 218.
- 17- المقامات، ص 219.
- 18 - م.ن، ص 223.
- 19- الإمام أبو زهرة، تاريخ الجدل، دار الفكر العربي، القاهرة، 1980، ص 65، 66.
- 20- المقامات، ص 225، 226.
- 21 - الإمام أبو زهرة، المعجزة الكبرى، ص 372.
- 22 - المقامات، ص 230.
- 23- م.ن، ص 230.
- 24- م.ن، ص 236.
- 25- أرسطو طاليس، الخطابة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، د. ط، دار القلم، بيروت، د.ت، ص 228، 229.

* - استعرنا هذه الخطاطة من رولان بارت، الأبحاث البلاغية، نقلا عن محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري تطبيقي لدراسة الخطابة، الخطابة في القرن الأول نموذجا، د.ط، دار الثقافة للنشر والتوزيع، المغرب، 1986، ص129.

* - لقد استنبط الغزالي من القرآن الكريم خمسة أشكال من الاستدلال منها ميزان التلازم قال: «لأن أحد الأصليين يشتمل على جزئين أحدهما لازم والآخر ملزوم كقوله تعالى "لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا" فإن قوله تعالى: لفسدتا لازم، والملزوم قوله تعالى "لو كان فيهما آلهة"، ولزمت النتيجة من نفي اللازم". نقلاً عن: الإمام أبو زهرة، تاريخ الجدل، ص75.

26- المقامات، ص 195.

27- م ن، ص 162.

28- فان ديك، النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة عبد القادر قنيني د.ط، افريقيا الشرق، 2000 ص151.

29- محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ط1، المركز الثقافي العربي، 1991، ص 58.

30- المقامات، ص 195.

31 - تزفيتان تودوروف، مفاهيم السردية، ترجمة عبد الرحمن مزيان، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر 2005، ص 76.

32- المقامات، ص 201.

33- م ن، ص 205.

34- مريم فرنسيس، في بناء النص ودلالته، ص 156.

35- المقامات، ص 176.

36- علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، د.ط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1995، ص 93.

37- م س، ص 167، 168.

38- المقامات، ص 167.

39- م ن، ص 212.

40- المقامات، ص 159.

41 - م ن، ص 182.

42 - سيزا قاسم، بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، د. ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984. ص 110، 111.

43- الإمام أبو زهرة، المعجزة الكبرى، ص 351.

44- مريم فرانسيس، في بناء النص ودلالته، ص 68.

45- ميخائيل باختين، أشكال الزمان والمكان في الرواية، ترجمة يوسف حلاق، د.ط، منشورات وزارة

الثقافة دمشق، 1975، ص 5.

46- المقامات، ص 271.

47- م ن، ص 258.

48- المقامات، ص 262.

49 - Orecchioni (C.K) : op. cit, p 220.

- 50- المقامات، ص 258، 262.
- 51 - أبو زهرة، المعجزة الكبرى، ص 365.
- 52 - يراجع طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 1989، ص 238 إلى 253.
- 53- المقامات، ص 258، 259.
- 54- م ن، ص 262.
- 55- م. ن، ص 271.
- 56- الحجرات، الآية: 2.
- 57- المقامات، ص 263.
- 58- المقامات، ص 263.
- 59- م ن، ص 263، 264.
- 60- طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 251.
- 61 - المقامات، ص 242.
- 62 - طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2000، ص 81.
- 63- المقامات، ص 264.
- 64- م. ن، ص 265.
- 65- م. ن، ص 264.
- 66- مفتاح بن عروس، "حول الاتساق في نصوص المرحلة الثانوية"، مقاربة لسانية، مجلة اللغة والأدب، ع12، دار الحكمة، الجزائر، ديسمبر، 2004، ص 440.
- 67- محمد محمد يوسف علي، وصف اللغة العربية دلاليا في ضوء الدلالة المركزية، دراسة حول المعنى وظلال المعنى، د. ط، منشورات جامعة الفاتح، دب، 1993، ص 143.
- 68- المقامات، ص 265.
- 69- محمد خطابي، لسانيات النص، ص 16، 17.
- 70- محمد محمد يوسف علي، وصف اللغة العربية دلاليا، ص 89.
- 71 - المقامات، ص 267.
- 72- صالح خديش، "استراتيجية الإدلال في القصة"، مجلة السرديات، السرد العربي، ع1، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، جانفي. 2004.
- 73- عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغربة، دراسات بنيوية في الأدب العربي، ط2، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1983، ص 76.
- 74- م ن، ص ن.